فقه اللغة - تطبيق

الأستاذة / أمال حليتيم

السنة الأولى ليسانس

فوج 6 + فوج 12

جامعة الإخوة منتوري

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية

جان جاك روسو

محاولة في أصل اللّغات

(وفيها يتحدّث عن النّغم وعن المحاكاة الموسيقيّة)

الفصل الاول

في مختلف وسائل تبليغ أفكارنا

يميز الكلام الانسان عن الحيوانات. وتميّز اللّغة الأمم بعضها عن بعض، فلا تعرف نسبة انسان ما الّا بعد أن يتكلّم . ويحمل الاستعمال والحاجة كلّ امرىء على أن يتعلّم لغة بلاده . ولكن ما الذي يجعل تلك اللّغة هي لغة بلاده لا لغة بلاد أخرى ؟ انّ الاجابة عن ذلك تقتضي الرّجوع الى سبب ما ، يرتبط بالمكان ، ويكون سابقا على العادات عينها : فالكلام بما هو أوّل مؤسّسة اجتماعيّة ، انّما يدين بشكله الى أسباب طبيعيّة .

فما ان تعرّف بعضهم على بعض كائنا حاسّا ومفكّرا وشبيها به حتّى دفعه الشّوق وحاجة ابلاغه مشاعره وأفكاره الى البحث عن وسائل ذلك الابلاغ . وهذه الوسائل لا تستمدّ من غير الحواس، اذ هي الالات الوحيدة التي يمكن بها للمرء أن يؤثر في غيره. وها هي العلامات الحسية تجعل اذن للتعبير عن الفكر. ان الذين اخترعوا اللغة لم يستخدموا هذا البرهان. ولكن حدسهم أوحى لهم بنتيجته .

ان عامّة الوسائل التي نقدر بها على التأثير في حواسّ الغير تنحصر في اثنتين هما الحركة والصّوت ، ويكون فعل الحركة امّا مباشرا باللّمس أو غير مباشر بالاشارة . ولمّا كان حدّ الفعل الاوّل طول السّاعد ، فانّه لا يمكنه التّبليغ عن بعد ، في حين يمتدّ الثّاني بقدر ما يمتدّ شعاع البصر . وهكذا لا يبقى الّا البصر والسّمع عضوين من أعضاء اللغة منفعلين بين أناس مشتتين .

ولئن كانت لغة الاشارة ولغة الصّوت طبيعيّتين على حدّ سواء ، فانّ الأولى أيسر (من الثّانية) وأقل خضوعا للمواضعات . فانّ ما يمثل الى أبصارنا من الأشياء أكثر ممّا يبلغ منها الى مسامعنا ، والاشكال أشدّ تنوّعا من الأصوات ، كما هي أشدّ تعبيرا وأكثر ايحاء في أقلّ وقتا. فمن الحب جاء الرسم كما يقال. ومنه الكلام أيضا ولكن بأقل سعدا. وها هو مزدريه لفرط ما هو غير راض عنه . فانّ له من أساليب التّعبير ماهو أحيا ؛ ألا فلكم شيئا تقول لحبيبها تلك التي ترسم في لذّة قصوى خياله ! ولكم كان يلزمها أن تستخدم من الأصوات لو عبّرت عن حركة العصا تلك !

انّ اشاراتنا لا تعني غير حيرتنا الطّبيعيّة . ولكنّي لا أريد أن أتحدّث عن تلك الاشارات . فالأوروبّيون ، دون سواهم ، يومئون عند الكلام : لكأنّ كلّ قوّة ألسنتهم قد آلت الى سواعدهم . ويزيدون عليها قوّة الرّئتين . وكلّ ذلك لا يجديهم نفعا . ففي حين يتخبّط الفرنسي ما أمكنه ، ويشبع هامته تعذيبا بكثرة ما يقول من الكلام ، ينحي التّركي غليونه عن فمه هنيهة ثمّ يتمتم بكلمتين ويجهز عليه بجملة واحدة .

لقد نسينا فنّ الاشارات منذ أن تعلمنا الاشارة : تماما مثلما أنّنا بالكثير من كتب النحو الانيقة لم نعد نفقه رموز المصريين. فان القدماء لم يألفوا التعبير بالألفاظ عن أحرّ ما كانوا يقولونه، بل بالاشارات. ما كانوا يقولونه ولكن كانوا يبدونه .

فلتفتحوا كتب التّاريخ القديم ، لتجدنّها تعجّ بهذه الأساليب من البرهنة التي تخاطب العيون فلا يفوتها أبدا أن تخلّف من الآثار ماهو أوثق ممّا تخلّفه الأقوال

التي كان بالامكان ابدالها بها . انّ الشيء ، اذا ما عرضناه قبل التكلّم عنه ، يهزّ الخيال هزّا ، ويثير حبّ الاطّلاع ويستولي على القلب شوقا وارتقابا لما سيقال . ولقد لاحظت أنّ الايطاليين والبروفانسيّين يجدون فيما تعوّدوه من سبق الاشارة عندهم على القول ، وسيلة يجعلون بها النّاس أحسن استماعا اليهم بل وأشدّ التذاذا بذلك . ولكن أبلغ اللّغات هي تلك التي الاشارة فيها قد قالت كلّ شيء من قبل الكلام . أفلم يكن تاركان وثرازيبول وهو يهوى على رؤوس الخشخاش ، والاسكندر وهو يجعل ختمه على فم نديمه ، وديوجينس وهو يتجوّل أمام زينون ، أفلم يكن هؤلاء يعبّرون بأحسن من الكلام ؟ فأيّ تسلسل من الكلام قد كان يعبّر مثلما عبّروا عن تلك الأفكار بعينها ؟ وهاهو داريوس وقد توغل بجيشه في سيثيا يصله من ملك السيث ضفدعة وعصفور وفأر وخمسة سهام، هديّة يسلّمها الرّسول في صمت ثمّ ينصرف . ولكنّ خطابه الفاجع قد فهم ، فلم يزل أوكد على داريوس من الرّجوع الى بلاده كيفما أمكنه . فلتعوّضوا هذه الرّموز برسالة : ليتضاء لنّ هولها بقدر ما يتعالى تهديدها . ان هي الاهذر ، وما كان داريوس الّا مستخفّا بها .

عندما عزم لاوي افرايم على أن يثأر لموت زوجته ، فانّه لم يكتب الى قبائل بني اسرائيل ؛ بل قسّم الجثّة الى اثنتي عشرة قطعة وأرسل بها اليهم . فلمّا أن رأوا ذلك المشهد ، أسرعوا الى السّلاح صراخا بصوت واحد :

« كلّا ، ما كان مثل هذا أبدا في اسرائيل ، من يوم أن خرج آباؤنا من مصر الى اليوم » .

وأبيدت قبيلة بنجامان [1] . فلو كان ذلك اليوم لتقلّبت القضيّة بين المرافعات والمجادلات ، وربّما الفكاهات ، ولتأجّلت الى غير نهاية ، ثمّ لظلّ أبشع الآثام بدون جزاء . كذلك نذكر الملك ساوول حين عاد من الحرث ، فقطّع ثيران محراثه قطعا عديدة، ثم استخدم رمزا مماثلا ليحمل به بني اسرائيل على أن يخفوا لنجدة مدينة جاباس . انّ أنبياء اليهود ومشرّعي اليونان ، قد كانوا بما يقدّمونه غالبا من الاشياء المحسوسة للشّعب ، أبلغ ممّا لو خاطبوه بمقالات طويلة . وانّ الأسلوب

الذي يذكر به أثيني أنّ الخطيب هيبريد برّأ فريني المومس من دون أن يحتجّ للدّفاع عنها بكلمة واحدة لهو كذلك فصاحة صامتة ليس يندر أثرها في كلّ الأزمان.

وهكذا فانّنا نخاطب العيون أحسن ممّا نخاطب الآذان . فليس ثمّة من لا يشعر بصدق حكم هوراس في هذا الصّدد . بل إنّنا لنرى أنّ أبلغ الخطب هي تلك التي نضمنها أكثر ما يمكن من الصّور، وأن ليس للأصوات من القوّة أكثر مما لها عندما تفعل فعل الألوان .

أمّا إذا ما تعلق الامر بأن نؤثر في القلب ونلهب العواطف، فذلك شأن آخر تماما ؛ انّ الانطباع الذي يعقب الخطاب ، فيكون له وقع مضاعف ، ليخلّف في المرء أثرا مختلفا عن ذلك الذي تخلفه فيه رؤيته للشيء ذاته ماثلا لحما ودما فيحيط به في طرفة عين فلتتخيلوا وضعا جدّ عاديّ من الألم؛ فانه ليعسر أن يصل بكم التأثّر من مجرّد رؤية الشخص المصاب الى حدّ البكاء. ولكن دعوا له من الوقت ما يكفي ليحدثكم بكل ما يحس، اذن لتجهشن لتوّكم بالبكاء. وما بغير هذا الوجه تفعل فينا مشاهد التراجيديات فعلها [2]. ان التمثيلية الايمائية التي لا كلام فيها، هي وحدها تتركنا في دعة . أما الخطاب الذي ليس فيه ايماء فينتزع الدّموع منّا انتزاعا. للعواطف ايماءاتها ولكن للعواطف أيضا نبراتها . وان هذه النبرات التي تزلزل علينا الارض، والتي لا يمكن أن نصمّ عنها آذاننا لتتسلّل منها الى صميم القلب فتحمل اليه رغم أنفسنا الحركات التي تنتزعها وتجعلنا نحس بما نسمع. فلنستنتج اذن أنّ ما نراه من الاشارات يزيد من دقّة المحاكاة، ولكن اثارة الاهتمام أنجع بالاصوات .

ذلك ما يجعلني أعتبر أنّه لو لم تكنْ لنا قطّ غير حاجات طبيعيّة لأمكننا جدّا أن لا نتكلّم أبدا وأن نتفاهم على التّمام بمجرّد لغة الاشارة ، ولكان بمقدورنا أن نقيم مجتمعات لا تختلف كثيرا عمّا هي عليه اليوم أو هي أصوب تدرجا نحو هدفها وأن نؤسس قوانين ونختار قادة ونخترع فنونا ونقيم التّجارة وباختصار أن نعمل من الأشياء بقدر ما نعمله منها بفضل الكلام. ان لغة رسائل « السلام » [3] لتحمل من دون ما خشيه للرقيب أسرار الغزل الشرقي عبر اشدّ

الاحاريم مناعة. وبكم الرحمان يتفاهمون فيما بينهم كما يفهمون كل ما يقال لهم بالاشارة تماما مثلما يمكن قوله بالكلام. فالسيد بيرير ومن مثله ممّن يعلمون البكم لا أن يتكلّموا فحسب ولكن ايضا ان يعوا ما يقولون ، إنّما هم مجبورون على أن يعلّموهم قبل ذلك لغة أخرى، لا تقل تعقيدا، يمكنهم بواسطتها أن يفهموهم تلك اللغة .

ويذكر شاردان أن الدّلالين في جزر الهند يمسك بعضهم بأيدي البعض ويغيرون من أساليب تلامسهم بحيث لا يتفطن اليهم أحد، فيعقدون بذلك كل صفقاتهم سرا على رؤوسي الملا، ومن غير أن يتبادلوا كلمة واحدة. ان هؤلاء الدلالين، وان فرضناهم عميا، صمّا، بكما، لن يكونوا اقل تفاهما فيما بينهم. وهو ما يبين أننا نقدر بالاقتصار على احد الحسين اللذين بهما فعاليتنا، على أن نجعل لانفسنا لغة .

ويظهر أيضا من الملاحظات عينها ان اختراع فن تبليغ افكارنا ليس مدينا للاعضاء التي تخدم هذا التبليغ بقدر ما يرجع الى ملكة تخص الانسان هي التي تجعله يستخدم لتلك الغاية اعضاءه بل تحمله، اذا ما انعدمت تلك الاعضاء، على ان يستخدم غيرها لعين تلك الغاية، هبوا للانسان هيئة ما، مهما كانت غير مكتملة. فانه سيكتسب لا محالة أقلّ أفكارا. ولكن يكفي ان يكون بينه وبين نظراته وسيلة ما للتواصل يقدر بها بعضهم على الفعل وبعضهم على الاحساس، حتى يتمكنوا في النهاية من أن يتبادلوا من الافكار بقدر ما عندهم منها .

- ان الهيئة التي للحيوانات لتفي بأكثر مما يحتاجه هذا التواصل. ومع ذلك فلا واحد منها استعملها. فليت شعري، هو ذا فرق مميز حقا! اني لا أشك قط في ان التي تعمل من الحيوانات وتعيش معا، لا سيما القنادس والنمل والنحل، تملك لغة طبيعية ما، تتواصل بها فيما بينها. بل ثمة حتى ما يدعو الى الاعتقاد بأن لغة القنادس ولغة النمل انما هي لغات اشارة ولا تخاطب الا العيون. ومهما يكن من أمر فان هذه اللغات وتلك، بما هي طبيعية، ليست مكتسبة. والحيوانات التي تتكلم بها انما تملكها منذ الولادة. ولكل الحيوانات نفس اللغات في كل مكان، فلا

تستبدّ لها ولا تحقق فيها أدنى تقدم. اما لغة التواضح فهي لغة الانسان وحده. هو ذا ما يجعل الانسان يحقق تقدما في الخير أو في الشر، وما يجعل الحيوانات لا تحقق منه شيئاً. ان مجرد هذا التمييز ليبدو عميق الابعاد : ويقال ان تفسيره يكون بالرجوع الى اختلاف الاعضاء. لكم أودّ معرفة هذا التفسير العجيب .

الفصل الثاني

.في أنّ أوّل اختراع للكلام ليس ناتجا عن الحاجات بل عن الأهواء.

ثمّة اذن ما يحمل على الاعتقاد بأنّ الحاجات قد أملت علينا أوّل الاشارات ، وأنّ الأهواء قد انتزعت منّا أوّل التّصويتات . ولعلّنا ، اذا ما تتبّعنا أثر الاحداث بالاعتماد على هذه التمييزات ، ملزمون بالتّفكير في أصل اللّغات بأسلوب مختلف جدّا عن الأساليب التي اتبعت الى حدّ الآن . انّ عبقريّة اللّغات الشرقيّة ، وهي أقدم ما هو معروف لدينا من اللّغات ، تكذّب تكذيبا مطلقا ما نتخيله عن تكوّنها كتدرّج في التعلم . فليست هذه اللّغات من المنهج والمعقول في شيء ، بل هي حيّة ومجازيّة يراد اقناعنا بأنّ لغة الأوّلين هي لغات هندسيّين في حين نرى أنّها لغات شعراء .

لابدّ أنّ ذلك هو ما كان . فانّهم لم يبدأوا بالتّفكير ، بل بدأوا بالاحساس . ويدّعي بعضهم أنّ البشر انّما اخترعوا الكلام للتعبير عن حاجاتهم . يبدو هذا الرّأي غير مقبول . فانّ المفعول الطّبيعي للحاجات الأولى انّما كان تفريق النّاس لا تقريب بعضهم من بعض. لقد كان ذلك ضروريّا لأن يمتدّ النّوع وأن تعمر الأرض

بسرعة ، اذ لولاه لتكدّس الجنس البشري في ركن من العالم ولظل ما بقي منه مقفرا. وينتج بوضوح من مجرّد ما ذكرناه ان أصل اللغات ليس سببه حاجات البشر الأولى. فمن غير المعقول ان يكون ممّا يفرّق بينهم ما يجمعهم. من أين يمكن ان يكون هذا الأصل اذن؟ هو من الحاجات الأدبيّة ومن الأهواء. ان كلّ الأهواء تقرّب بين النّاس الذين تجبرهم ضرورة البحث عن العيش على التّباعد . فلا الجوع ولا العطش انتزعا منهم أوّل التّصويتات ، بل الحبّ والكره والشفقة والغضب . انّ الثمار لا تفلت من أيدينا ، فيمكننا أن نتغذّى بها من غير كلام . كما أنّنا في صمت نطارد الفريسة التي نريد أن نقتاتها . ولكن ، اذا ما أردنا التّأثير في قلب شابّ ، أو صدّ معتد أثيم ، فانّ الطّبيعة تملي علينا نبرات وصرخات وأنّات . تلك هي أقدم الكلمات المخترعة ، وذاك هو ما جعل اللّغات الأولى شادية عاطفيّة قبل أن تكون بسيطة منهجيّة . انّ كلّ ما تقدّم لا يستقيم بدون تمييز . ولكنّي سأعود اليه فيما يلي .

الفصل الثالث

لابدّ أنّ اللّغة الاولى قد كانت مجازيّة .

لمّا كانت الأسباب الأولى التي دفعت الانسان الى التكلّم هي العواطف ،فانّ تعابيرها الأولى كانت استعارات. لقد كانت اللغة المجازية هي أول ما تولد أما الدّلالة الحقيقيّة فكانت آخر ما اهتدي اليه . فانّ الأشياء لم تسمّ باسمها الحقيقي الّا عندما تمّت رؤيتها في شكلها الحقيقيّ . ففي البداية لم يتكلّم النّاس الا شعرا ولم يخطر ببالهم أن يفكّروا الّا بعد زمن طويل .

ولكنّي أحسّ ههنا أنّ القارىء يستوقفني ويلتمس أن أبيّن له كيف يمكن أن يكون التّعبير مجازيا قبل أن تكون له دلالة حقيقيّة ، اذ المجاز انّما يكون في تحوّل المعنى . وانّي لمقرّ بذلك ، غير أنّه يجب لفهمي أن تعوّض الكلمة التي ننقلها بالفكرة التي تقدّمها لنا العاطفة. فاننا لا ننقل الكلمات الا لأننا ننقل الافكار. فلو لم يكن ذلك لما كانت اللغة المجازية تعني شيئا. سأردّ إذن بمثال :

لو أنّ رجلا متوحّشا صادف غيره من المتوحّشين لفزع ، ثمّ لحمله فزعه منهم

على أن يعتبرهم أكبر منه وأقوى بحيث يطلق عليهم اسم العمالقة ؛ ثمّ انّه بعد عدّة تجارب سيجد أنّ هؤلاء العمالقة المزعومين لم يكونوا أعظم منه ولا أشدّ باسا وأن قامتهم لا تتناسب والفكرة التي كانت مرتبطة في ذهنه بكلمة عملاق : اذ ذاك سيخترع اسما يجمع بينه وبينهم كاسم الانسان مثلا ، وسيترك اسم العملاق الى الشّيء الكاذب الذي أثار انتباهه طوال مدّة وهمه . تلك هي الكيفيّة التي يتولّد بها المجاز قبل الحقيقة ، عندما تبهرنا الأهوال وتكون الفكرة الأولى التي تقدّمها لنا غير فكرة الحقيقة . انّ ما قلته عن الكلمات والأسماء ينطبق بدون صعوبة على الجمل . لمّا كانت الصّورة الوهميّة التي يقدّمها لنا الهوى هي أوّل ما ظهر لنا فانّ اللّغة التي تطابقها قد كانت أيضا أوّل ما اخترع ثم أصبحت تلك اللّغة مجازيّة عندما تعرّف الفكر المستنير على خطئه الأوّلي ، فلم يستعمل تلك العبارات الّا بصدد عين الأهواء التي أنتجتها .

الفصل الرابع

في الخصائص المميّزة للّغة الأولى ، وفي التغيرات
التي لابدّ أنّها مرّت بها .

تخرج الأصوات البسيطة من الحنجرة بالطّبع ، ويكون الفم بالطبع مفتوحا بقدر أو بآخر ولكنّ تغايرات اللّسان والحنك ، وهي التّغايرات التي تخوّل النّطق ، تتطلّب شيئا من الانتباه والدربة. فانّنا لا ننجزها اذا ما لم نبتغ انجازها . انّ كلّ الاطفال في حاجة الى تعلّمها والكثير منهم لا يقدرون على ذلك بسهولة . وفي كلّ اللّغات ، فانّ أحرّ مواضع التعجّب غير منطوق بها ، والصراخات والأنّات مجرّد تصويتات ، أمّا البكم أي الصّمّ ، فانّهم لا ينطقون الّا بأصوات غير متمفصلة . بل انّ الأب « لامي » لا يتصوّر حتّى أنّ النّاس قد كانوا يقدرون على اختراع غير تلك الأصوات لولا أنّ اللّه قد تعمّد تعليمهم الكلام . فالتّمفصلات قليلة العدد ولكنّ عدد الأصوات غير محدود ، ويمكن للنبرات التي تخصّها أن تتضاعف الى ما لا نهاية له . انّ كلّ الأصوات الموسيقية هي كذلك نبرات . صحيح أنّه ليس لنا منها في الكلام غير ثلاثة أو أربعة ولكنّ الصّينيّين يملكون منها أكثر من

ذلك بكثير . وفي مقابل ذلك فانّ ما بهم من الحروف الصّوامت يقل عمّا لنا . فان أنتم أضفتم الى هذا المصدر من التّركيبات ، مصدر الأزمنة أو الكميّة ، لم تحصلوا على المزيد من الكلمات فقط ، بل كذلك على مقاطع متنوّعة تزيد عمّا تحتاجه أثرى اللّغات .

لست أشكّ أبدا في أنّ أولى اللغات لو أنّها مازالت حيّة لظلّت بقطع النّظر عن مفرداتها وعن قواعد تركيبها — محتفظة بخصائص أصيلة تميّزها عن كلّ اللّغات الاخرى . فلا يكفي أنّ كلّ أساليب التّعبير في هذه اللّغة لابدّ لها أن تكون مجازات ومشاعر وصورا ، بل ينبغي لها أن تطابق في جزئها الآلي موضوعها الأوّل ، وأن تعرض على الحواس والذهن ما يكاد يكون محتوما من انطباعات الهوى الذي يبتغي البلوغ الينا .

لمّا كانت التصويتات الطبيعية غير متمفصلة ، فانّ الكلمات ستكون في تلك اللّغة قليلة التمفصل . فبضعة من الحروف الصّوامت اذ تتخلّل تلك التّصويتات ، معمّرة بذلك فجوتها ، تكفي لجعلها سلسة سهلة النّطق. وفي مقابل ذلك فانّ الأصوات ستكون شديدة التّنوّع كما سيضاعف تنوّع النّبرات من عدد الأصوات عينها . ستكون الكميّة والايقاع مصدرين جديدين للتّركيب بحيث انّ الأصوات والتصويتات والنبرة والعدد وهي من الطبيعة لما كان فعلها يكاد يكفي فعل التمفصلات وهي من التّواطؤ ، فانّنا سنغنّي عوضا عن الكلام . ان أغلب الكلمات الجذرية ستكون أصواتا تحاكي نبرة الأهواء أو مفعول الاشياء الحسيّة : فتظهر فيها الحاكية الحسيّة باستمرار .

سيكون لهذه اللّغة الكثير من المترادفات للتعبير عن الشّيء نفسه في نسبه المختلفة [4] . ليكونّ لها القليل من الصّيغ الظّرفيّة ومن الكلمات المجرّدة للتّعبير عن تلك النّسب عينها . ولكن ليكونّ لها من كثرة صيغ التّكبير وصيغ التّصغير ومن الكلمات المركّبة ومن أدوات التحسين الزوائد ما تمنح به من حسن الايقاع للمقطوعات المتناغمة ومن التّصريح للجمل ، ليكونّ لها الكثير من مواضع اللّحن والشّذوذ . لتفرّطن في التّناسب النّحوي لتتمسّك بعذوبة الصّوت وبالعدد

والتناغم وجمال الأصوات . ليكونن لها عوض الأدلّة حكم ، ولتقنعنّ من دون أن تسعى الى اقناع ، ولترسمنّ من دون برهان ، ولتشبهنّ اللّغة الصّينيّة من بعض الوجوه واليونانيّة من غيرها والعربيّة من غيرها . فلتوسّعوا هذه الافكار الى كلّ تفرّعاتها، ستجدون إذ ذاك أنّ كتاب اقراطيلوس لافلاطون ليس من السّخافة بالقدر الذي يبدو عليه .